

الصُّوفِيَّةُ وَالْفُقَرَاءُ

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨ هـ



قدم لها

الدكتور محمد حميد بن غيازي

29

الناشر
دار المنهج بحجة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ١٧١٣٤٢٤

الصُّوفِيَّةُ وَالْفُقَرَاءُ

شيخ الاسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨ هـ



قدم لها

الدكتور محمد حميد غباري

الناشر

دار المناد
للطباعة والنشر والتوزيع
جدة - حي مشرفه شارع الصحافة
ت ٧٦١٣٤٢٤ ص ب ١٨٤٨٥. رقم ترخيص ٢١١٤٢

المؤسسة السودانية للدراسات
٦٨ شارع النجاشية - القاهرة ب . ٨٢٧٨٥١

مطبعة المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ... يا شيخ الإسلام

قال ابن القيم رحمه الله ، عن شيخه

شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي :

[شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق

أحب إلينا من شيخ الإسلام]

[سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون .

وسلام على المرسلين .

والحمد لله ربّ العالمين]

- ١ -

لا أقول ، إن ابن تيمية رحمه الله ، قد استوفى موضوع رسالته هذه بحثاً ، ودراسة ، وتحقيقاً ، كما عهدناه دائماً في بحوثه ودراساته التي يتوفر عليها .

ولعل ذلك راجع إلى ظروف معينة كان يعيشها الشيخ وهو يكتب هذه الرسالة .

فهو يقول في آخرها : [وهذا الجواب فيه جُمل يحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع] .

وإذا كان [هذا الموضع] - على حدّ تعبير ابن تيمية - لم يتسع للتفصيل والتطويل ، والشرح والإفاضة ، والأخذ والردّ ؛ فإن لابن تيمية في كتبه الأخرى بحثاً ضافية الذيل في هذا الموضوع .

غير أنه يحق لنا أن نتوقف قليلاً لنناقش بعض ما جاء في رسالة [شيخ الإسلام] حول الصوفية والتصوف ، فلقد راح يبحث عن علة هذه التسمية وعن أصلها اللغوي .

ولكن الحيرة الشديدة أخذت عليه الطريق ، فوصل بعد لأيٍ وتعبٍ ، إلى رأى وقف عنده وارتضاه ، فهو يقول : [وتنازعوا في المعنى الذى أضيف إليه الصوفى ، فإنه من أسماء النسب ؛ كالقرشى والمدنى وأمثال ذلك .

ف قيل : إنه نسبة إلى أهل الصفة ، وهو غلط لأنه لو كان كذلك ل قيل : صَفَّى .

وقيل : نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله ، وهو أيضاً غلط ؛ فإنه لو كان كذلك ، ل قيل صَفَّى .

وقيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله ، وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك ل قيل : صَفَوَى .

وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب ، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسّاك .

وهذا - وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً ؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النسّاك ، ولأنه لو نسب النسّاك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفية لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام .

وقيل - وهو المعروف - إنه نسبة إلى لبس الصوف [.

وعند هذا الرأي الأخير (المعروف) وقف ابن تيمية .

وكم كنا نودّ أن يستمر ابن تيمية - وهو الدقيق العميق - في بحثه حتى يصل بهذه النسبة إلى أصلها الإغريقي .

ولكن ابن تيمية مافعل .

- ٣ -

صحيح أنه - رحمه الله وأثابه - توقف متعجباً عند هذا الاشتقاق ، وتساءل كما نتساءل نحن اليوم - ماهو السر الذي يجعل فريقاً من الناس ينتسبون إلى الصوف ، ويعتبرون هذه النسبة شعاراً ورمزاً ؟

ويجب ابن تيمية على هذا التساؤل مستنكراً بما يرويه عن أئمة الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف . فقال : إن قوماً يتخيرون الصوف ، يقولون : إنهم يتشبهون بالمسيح ابن مريم ، وهدي نبينا أحب إلينا ، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره .

- ٤ -

لكن [ابن تيمية] لم يقف بنا وقفة عند مفهوم هذه النسبة .

فلو سلمنا جدلاً - وهذا بعيد جداً - بصحة النسبة لغة .

فما هو معناها ديناً ؟

هل معنى كلمة صوفى ، هو المرادف لكلمة تقى ،
أو ولى ، أو محسن ؟

وإذا كان ذلك ، فكيف يصح لواحد من الناس
أو لجماعة من الناس ، أن يطلقوا على أنفسهم واحداً من هذه
الألفاظ ؟

أليس فى ذلك تزكية للنفس ، وقد نهى الله تعالى عن تزكية
النفس ، فقال : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١) ؟
﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من
يشاء ﴾ (٢) ؟

- ٥ -

ثم ... ما هذا الكلام الذى ينقله شيخ الإسلام عن
الصوفية ... من أنهم صديقو الأمة ؟

(١) النجم : ٣٢

(٢) النساء : ٤٩ .

أية صديقية هذه ؟

وأية أمة تلك ؟

ومن الصوفية كما نعلم ، ويعلم شيخ الإسلام خرجت
الزندقة ، والمهرطقة ، والسفسطة ، والمروق ، والفسوق ؟
ومنهم ذرّ قرن الإلحاد والفساد والحلول والاتحاد ؟

- ٦ -

وبعد :

فإن الصوفية هي الوباء القتال ، والداء العضال الذى
منيت به هذه الأمة ، فرّقت الجماعة ، ورؤّجت البدعة ،
وحاربت التوحيد ، وهاجمت السنة ، وأشاعت الفوضى
والجهل ... باسم العبادة والذكر والعهد والطريق ... !
ولم يعد الطريق واحداً بل أصبح طرائق قدداً على رأس كل
طريق شيخ يدعو إليه ، ومريدون يتبعونه ، بل يؤلهونه !!

والله يقول :

﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ
فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (١) .

فهل من سميع أو مجيب ؟

د . محمد جميل غازي

(١) الأنعام : ١٥٣ .

الصُّوفِيَّةُ وَالْفُقَرَاءُ

بسم الله الرحمن الرحيم

- مسألة عن الصوفية ، وأنهم أقسام ، والفقراء أقسام .
فما صفة كل قسم ، وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟
- الجواب :

الحمد لله ، أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ ، كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبي سليمان الداراني وغيرهما .

وقد روى عن سفيان الثوري : أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري .

الأصل الاشتقاق لكلمة صوفى :

وتنازعوا في المعنى الذى أضيف إليه الصوفى ، فإنه من أسماء النسب ، كالقرشى والمدنى ، وأمثال ذلك .

فقليل : إنه نسبة إلى أهل الصفة ، وهو غلط ، لأنه لو كان كذلك لقليل صُفَى .

وقيل : نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله ، وهو أيضاً غلط ، فإنه لو كان كذلك لقليل صُفَى .

وقيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط ، لأنه لو كان كذلك لقليل صَفَوَى .

وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة ، قبيلة من العرب ، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسّاك .

وهذا إن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً ، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النسّاك ، ولأنه لو نسب النسّاك إلى هؤلاء ، لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية ، ولا وجود لها في الإسلام .

المنشأ الأول للصوفية :

وقيل : وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف ، فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن .

وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي ، وعبادة بصرية .

تفضيل الصوف :

• وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين : أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف ، فقال : إن قوماً يتخيرون الصوف ، يقولون إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم ، وهدي نبينا أحب إلينا ، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحوه من هذا .

ما يحكى عن عبادة أهل البصرة :

• ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة فى هذا الباب ، إنما هو عن عبادة أهل البصرة . مثل حكاية من مات أو غشى عليه فى سماع القرآن ونحوه ، كقصّة زرارة بن إدّ قاضى البصرة ، فإنه قرأ فى صلاة الفجر : ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ فخرّ ميتاً .

وكقصّة أبى جهير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المرى فمات ، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ، ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله .

المنكرون على المبالغة فى العبادة :

• فلما ظهر ذلك أنكر طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن سيرين ، ونحوهم .

والمنكرون لهم مأخذان منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً :
يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بيننا وبين هؤلاء الذين

يصعقون عند سماع القرآن ، إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط ، فإن خراً فهو صادق .

ومنهم : من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدى الصحابة ، كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله .

• والذي عليه جمهور العلماء : أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه ، وإن كان حال الثابت أكمل منه ، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا ، فقال : قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليه ، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ونحو هذا .

وقد نقل عن الشافعى أنه أصابه ذلك ، وعلى بن الفضل ابن عياض قصته مشهورة ، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه .

أحوال الصحابة عند سماع القرآن :

• لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في

القرآن ، وهى وجل القلوب ودموع العين ، واقشعرار الجلود كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ سُجُودٌ ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا نُزِّلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٤) .

(١) الأنفال : ٢ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

(٣) مريم : ٥٨ .

(٤) المائدة : ٨٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَيُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِيزِيدُهُمْ خَشُوعاً ﴾ (١) . وقد يَدُمَّ حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرَّين عليها ، والجفاء عن الدين ما هو مذموم وقد فعلوا .
ومنهم من يظن أن حالهم هذه أكمل الأحوال وأنمها وأعلاها . وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

أحوال الناس عند سماع القرآن :

بل المراتب ثلاث :

إحداها : حال الظالم لنفسه الذي هو قاسى القلب لا يلين للسمع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

(١) الإسراء : ١٠٩ .

(٢) البقرة : ٧٤ .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) .

والثانية : حال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه ، فهذا الذى يصعق صعق موت أو صعق غشى ، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله .

وقد يوجد مثل هذا فيمن يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله . ومن عبّاد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جنّنه ، وكذلك فى غيره ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التى تمرضه أو تقتله أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك ، فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة كما لو سمع القرآن السماع الشرعى ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك .

مقام الفناء :

• وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك ، من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها ، فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً بل معذوراً ، فإن السكران بلا تمييز .

وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة ، فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين . ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر .

وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل :

سُكرانٍ سُكْرُ هوى وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم لأن سببه محظور .

السماع :

• وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث

مثل هذا السكر ، وهذا أيضاً مذموم ، فإنه ليس للرجل أن

يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله ، إذ
إزالة العقل محرم .

ومتى أفضى إليه سبب غير شرعى كان محرماً ، وما يحصل
فى ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ، ولو بأمر فيها نوع من
الإيمان ، فهى مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل ، ولم يأذن
لنا الله أن نمنع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها ، مما
يوجب زوال عقولنا ^(١) بخلاف من زال عقله بسبب مشروع
أو بأمر صادفه ، لا حيلة له فى دفعه ^(٢) .

● وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه ، كسماع
لم يقصده يهيج قاطنه ، ويحرك ساكنه ، ونحو ذلك ، وهذا لا ملام
عليه فيه ، وما صدر عنه فى حال زوال عقله فهو فيه معذور ،

(١) أى رواها العارض بطرء هذه اللذة ، إذ يعود بانقضاء مدتها ، ولكننا
إذا علمنا أن شيئاً من ذلك يزول به العقل دائماً ، فيكون صاحبه مجبواً حرم علينا .
(٢) قوله بخلاف من زال عقله بسبب مشروع الخ . هو مقابل قوله : ومتى
أفضى إليه سبب غير شرعى . الخ .

لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم كالغمي عليه والمجنون ونحوهما .

هل السكران مكلف :

• ومن زال عقله بالخمير فهل هو مكلف حال زوال عقله ؟ .

فيه قولان مشهوران .

وفي طلاق مَنْ هذه حاله نزاع مشهور . ومن زال عقله بالبنج يلحق به كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد . وقيل : يفرق بينه وبين الخمر ، لأن هذا يشتهي ، وهذا لا يشتهي . ولهذا أوجب الحد في هذا دون هذا . وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبي حنيفة .

عقلاء المجانين :

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً ، إما بسبب خلط يغلب عليه ، وإما بغير ذلك .

ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النسك ، وقد
يسمون الموهبين .

قال فيهم بعض العلماء : هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا
وأحوالا ، فسلب عقولهم وأسقط أحوالهم ، وأبقى ما فرض لما
سلب .

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون
أو السكر أو الفناء ، حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك . إن
كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان
محموداً على ما فعله من الخير ، وما ناله من الإيمان معذوراً فيما
عجز عنه وأصابه بغير اختياره ، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم
لنقص إيمانهم ، ونحو ذلك من الأسباب ، التي تتضمن ترك
ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

● ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم ، أو مثله أو أكمل منه ، فهو أفضل منهم (١) .

وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم وهو حال نبينا ﷺ ، فإنه أسرى به إلى السماء وأراه الله ما أراه ، وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من حال موسى عليه السلام الذى خرَّ صعقاً لما تجلَّى ربه للجبل ، وحال موسى حال جليلة عليّة فاضلة ، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل .

● والمقصود أن هذه الأمور التى فيها زيادة فى العبادة والأحوال . خرجت من البصرة وذلك لشدة الخوف .

فإن الذى يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السلمى وأمثالهما أمر عظيم ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم .

* * *

(١) المنار : هذه المرتبة الثالثة وهى العليا ولم يصرح هنا بالعدد .

الاقتصاد في الخوف :

ومن خاف الله خوفاً مقتصداً ، يدعو إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكره الله ، من غير هذه الزيادة فحاله أكمل . وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة رضي الله عنهم .

وقد روى أن عطاء السلمي رضي الله عنه رأى بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي يعطاء أما استحييت مني أن تخافني كل هذا ؟ أما بلغك أني غفور رحيم ؟

البصرة والكوفة :

• وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة ، وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي الله عنهم وعلى ما سنّه الرسول أموراً توجب أن يصير الناس طرفين . قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك ، وقوم يغفلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها .

• والتحقيق : أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون ، كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك ، وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس .

• وخيار الناس من أهل الفقه والرأي في أولئك الكوفيين على طرفين ؛ قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم ، وقوم يغلوون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم ، وربما فضلّوهم على الصحابة ، كما أن الغلاة في أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة ، وهذا باب يفترق فيه الناس .

* * *

أفضل الطرق

• والصواب : للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو

وأصحابه ، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب
اجتهادهم ووسعهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فاتقوا الله
ما استطعتم ﴾ (١) .

وقال ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

وقال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (٢) .

وإن كثيراً من المؤمنين المتقين أولياء الله قد لا يحصل لهم
من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقى الله ما استطاع
ويطيعه بحسب اجتهاده ، فلا بد أن يصدر منه خطأ إما في علومه
وأقواله ، وإما في أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم
خطاياهم ، فإن الله تعالى قال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من
ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين

(١) التغابن : ١٦ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك
المصير - إلى قوله - ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴿١﴾
قال الله تعالى : قد فعلت .

• فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء ، أو طريق
أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ
ضال مبتدع ، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض
الأمر مذموماً معيياً ممقوتاً ، فهو مخطئ ضال مبتدع .

• ثم الناس في الحب والبغض والموالة والمعاداة هم أيضاً
مجتهدون ، يصيبون تارة ويخطئون تارة ، وكثير من الناس إذا علم
من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقاً ، وأعرض عن سيئاته ،
وإذا علم منه ما يبغضه ، أبغضه مطلقاً وأعرض عن حسناته .
• وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج المعتزلة والمرجئة .

(١) البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

وأهل السنة والجماعة يقولون : ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، وهو أن المؤمن يستحق بوعده الله وفضله الثواب على حسناته ، ويستحق العقاب على سيئاته ، وإن الشخص الواحد يجمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه ، وما يحمد عليه وما يذم عليه ، وما يحب منه وما يبغض منه ، فهذا هذا .

* * *

الصادقون :

● وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة ، وأنه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ماله فيه اجتهاد ، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ماله فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم : صوفى ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

• ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة ، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه .

كقول بعضهم : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر .

التصوف : كتمان المعانى ، وترك الدعاوى ، وأشبه ذلك .

وهم يسبرون بالصوفى إلى معنى الصديق .

وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون كما قال الله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) .

• ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى ، لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذى اختصّ بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه ، فكأن

(١) النساء : ٦٩ .

الصديق من أهل هذه الطريق ، كما يقال صديقو العلماء ،
وصديقو الأمراء ، فهو أخص من الصديق المطلق ، ودون
الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين : إنهم
صديقون ، فهو كمال يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة :
إنهم صديقون أيضاً ، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة
الله ورسوله بحسب اجتهاده ، وقد يكونون من أجل الصديقين
بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقي زمانهم ، وإن الصديق
في العصر الأول أكمل منهم .

* * *

الصديقون درجات :

• والصديقون درجات وأنواع ، ولهذا يوجد لكل منهم
صنف من الأحوال والعبادات حقه وأحكامه وغلب عليه ، وإن
كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه ، وأفضل منه .

• ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم فطائفة ذمّت الصوفية والتصوّف ، وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .

ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ماهو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .
وطائفة غلت فيهم ، وادّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

والصواب : أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه .

زنادقة التصوف :

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم ، كالحلاج مثلا ، فإن

أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية ، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد .

أصناف الصوفية :

• فهذا أصل التصوف ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم .

فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز ، وأكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحْتَنِبُونَ

المحارم .

والثانى : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعاً للمال ، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم ، وأعمالهم ، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره ، أنه منهم وليس منهم .

* * *

إطلاق الفقير فى الكتاب والسنة :

• وأما اسم الفقير فإنه موجود فى كتاب الله وسنة

رسول الله ﷺ ، لكن المراد به من الكتاب والسنة الفقير المعادل للغنى .

والفقراء والفقير أنواع ، فمنه المسوِّغ لأخذ الزكاة . وضده الغنى المانع المحرم لأخذ الزكاة ، كما قال النبي ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لقوى مكتسب » .

والغنى الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء ، كمالك والشافعي وأحمد ، وهو ملك النصاب ، وعندهم قد يجب على الرجل الزكاة ، ويباح له أخذ الزكاة خلافاً لأبي حنيفة .

والله سبحانه قد ذكر الفقراء في مواضع لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة في آية والفقراء المستحقين للنفقة في آية فقال في الأولى : ﴿ إِن تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمَا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُم

الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس
إلحافاً ﴿١﴾ .

وقال في الثانية :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى - إلى قوله -
للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً
من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم
الصادقون ﴾ (٢) .

* * *

الفقير الصابر والغنى الشاكر :

● وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير

(١) البقرة : ٢٧١ - ٢٧٣ .

(٢) الحشر ٧ ، ٨ .

من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم ، وقد تنازع الناس أيهما أفضل ؟ الفقير الصابر أو الغنى الشاكر ؟

والصحيح : أن أفضلهما أتقاهما ، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة ، كما قد بيناه في غير هذا الموضع ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة لا حساب عليهم ، ثم الأغنياء يحاسبون . فمن كانت حسناته أرجح من حسنات فقير كانت درجته في الجنة أعلى ، وإن تأخر عنه في الدخول . ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه .

* * *

الزهد والفقير :

• لكن لما كان جنس الزهد في الفقر أغلب ، صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف .

فإذا قيل : هذا فيه فقر ، أو ما فيه فقر ، لم يرد به عدم المال ، ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفى من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب ، ونحو ذلك .

الفقير والصوفى :

• وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا : أيهما أفضل الفقير أو الصوفى ؟

فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفى ، كأبى حفص السهروردى ونحوه ، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ، ونحو ذلك وأكثر الناس قد رجحوا الفقر .

* * *

الأولياء :

• والتحقيق : أن أفضلهما أتقاهما ، فإن كان الصوفى أتقى لله كان أفضل منه ، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله وأترك

لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير ، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه .

فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة .
وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً . أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :
يقول الله تعالى (٢) « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة (٣) »

(١) يونس : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) هذا الحديث تفرد البخارى بإخراجه دون مسلم ، وأصحاب السنن دون مسند أحمد أيضاً ، وهو معلود من غرائب جامعه وقد طعن الأئمة فى بعض رجال سنده ، وخرجه أيضاً بعض الذين يروون الضعاف والمناكير ، كابن أبى الدنيا والطبرانى بأسانيد فى كل منها مقال وله ألفاظ متقاربة ، وكتبه محمد رشيد رضا .
(٣) لفظ البخارى عن أبى هريرة « فقد آذنته بالحرب » أى أعلمته .

وما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وى يبصر وى يبطش وى يمشى ^(١) ، ولكن سألتى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيزنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه .

(١) معنى هذا أنه يصل إلى درجة الإحسان التى هى كمال الإسلام والإيمان التى فسرهما النبى ﷺ فى حديث أسئلة جبريل من صحيح مسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والمراد أن هذه المراقبة والحضور القلبى فى الصلاة وغيرها من ذكر الله تغلب على القلب حتى يشعر صاحبهما بأن الله الناظر إليه هو المصرف له فى جميع حركاته الظاهرة والباطنة .

وأظهر من هذا أن يقال : إن هذا من قبيل ، والله غالب على أمره ، وهو أن يصرف عنه السوء والفحشاء ، ويوقفه لما يرضيه من الأقوال والأعمال ، فهذا التوفيق والتسخير يسمع ويبصر ويبطش ويسغى ويفكر لا بهوى النفس وشهواتها .

وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين أصحاب
اليمين ، والمقرين والسابقين . فالصنف الأول الذين تقربوا إلى الله
بالفرائض ، والصنف الثانى الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد
الفرائض ، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم .
كما قال تعالى : وهذان الصنفان قد ذكرهم الله فى غير
موضع من كتابه كما قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا
من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات ﴾ (١) .

وكما قال الله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم * على الأرائك
ينظرون * تعرف فى وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم
* ختامه مسك * وفى ذلك فيلتنافس المتنافسون * ومزاجه من
تسنيم * عيناً يشرب بها المقربون ﴾ (٢) .

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) المطففين : ٢٢ - ٢٨ .

قال ابن عباس : يشرب بها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً .

وقال تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عيناً فيها تسمى سلسيلاً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ (٣) .

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع . والله أعلم .

﴿ تمت الرسالة ﴾

(١) الإنسان ١٧ ، ١٨ .

(٢) الواقعة : ٨ - ١١ .

(٣) الواقعة : ٨٨ - ٩١ .

فهرست

ص	
٣	لا يا شيخ الإسلام (مقدمة)
١١	الصوفية والفقراء
١٣	الأصل الاشتقاقى لكلمة صوفى
١٥	المنشأ الأول للصوفية
١٥	تفضيل الصوف
١٦	ما يحكى عن عبادة أهل البصرة
١٦	المنكرون على المبالغة فى العبادة
١٧	أحوال الصحابة عند سماع القرآن
١٩	أحوال الناس عند سماع القرآن
٢١	مقام الغناء
٢١	السماع
٢٣	هل السكران مكلف
٢٣	عقلاء المجانين
٢٦	الاقتصاد فى الخوف
٢٦	البصرة والكوفة

ص	
٢٧	أفضل الطرق
٣٠	الصدّيقون
٣٢	الصدّيقون درجات
٣٣	زنادقة التصوف
٣٤	أصناف الصوفية
٣٥	إطلاق الفقير في الكتاب والسنة
٣٧	الفقير الصابر والغنى الشاكر
٣٨	الزهد والفقير
٣٩	الفقير والصوفي
٣٩	الأولياء

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجي

المؤسسة المصرية للدراسات والبحوث
مطبعة المحند
٦٨ شارع النجاسة - القاهرة ت : ٨٢٧٨٠١

Bibliotheca Alexandrina



0402377